تاريخ النضال

بين العلم والدين

مراجعة وتلخيص عن الاستاذ درابر Draper

— ٣ —

تولدت نظرية دوران الارض رغم براهين الكنيسة الحمراء وجرفت موجة العلم آراء عتيقة مثل فكرة عمر الارض التى اختلف تقديرالاوائل فيها. اذ يؤخذ من النسخة السامرية للتوراة أنه انقضى بين الخليقة والطوفان ١٣٧٠ سنة فى حين تقول النسخة المتداولة أن المدة ١٦٥٦ وتقول ثالثة انها ٢١٥٦ ولكن بالرغم من هذا لايزال الاكيروس يقدرون عمر الارض بين ست وسبع آلاف سنة دون أن يقبلوا جدلا فى ذلك. فى حين أن لديهم ١٣٢ رأياً مختلفاً فى عام مولد المسيح وكذلك يقولون ان حدوث الطوفان قد أزاد السنة خمسة أيام وست ساعات حتى يخفوا الخطأ القديم القائل بأن السنة ٣٦٠ يوماً. ومن طرائف آرائهم فكرة توزيع نوح العالم على أبنائه اذ أقطع يافث أوروبا وسام آسيا وحام افريقية ولكنه لم يقطع أميريكا لأحد ويغلب على الظن أن هذه القارة قد خلقت فيما بعد وليس فى الايام الستة أو ربما تكون من نصيب يافث الذى اكتشفها عن يد كولومبس وسهى عن ذكرها .

وكان سام كثير النسل حتى ان أعقابه ملأوا آسيا خلال سبعين سنة ولما ضاقت بهم نظموا لاكتشاف المريخ ولولا لطف الله بنا فبلبل ألسنتهم لكانوا سبقونا الى اكتشاف ذلك الكوكب

ولم يتفق علماء الكنيسة على اللغة التى تكلمها الناس قبل كارثة بابل ، فأدعى البعض انهم كانوا يتلفظون باسماء ، ويقول البعض الآخر بل تكلموا بالمقاطع وكانوا قد نسوا أن آدم كلم الرب حرفا وفعلا واسما — هكذا ذكر فى الكتاب المقدس — وكلمت الحية حواء وهذه كلمت آدم.

ويجب أن لا ننسى طول أعمار الناس ثم نقصها الى النصف وأخيرا صارت كما هى عليه الآن. ويبرر الفلاسفة — لأنه كان فى رجال الدين فلاسفة — تخبطهم

هذا قائلين ان الطوفان المسكين قد أضعف الاعصاب والدم — كما أزاد أيام السنة — فهبط متوسط الحياة ، ولكن يظهر أن هذا الرأى لم يقنع البعض فقالوا ان المقصود من السنين الشهر القمرى ولكن غاب عن بال هؤلاء أيضاً أننا لو اتبعنا القسمة على اثنى عشر لحدث ماهو أشر مما نريد إخفاءه وينتج من هذا أنهم كانوا يتزوجون ويلدون قديماً وهم دون الخمس سنوات

وفى فصله الثامن يقول أنه توجد أديان بقدر ماتوجد عقول مفكرة بل الحقيقة أكثر من ذلك بكثير لان دين المفكر يتحول عن أصله كل سنة بل كل شهر بل فى مدة أقصر ولكن لم يخطر للمسيحيين هذا بل اعتقدوا عكسه فاوغلوا فى ضلالهم واضطهدوا الناس واستعملوا كل الوسائط لاجبارهم على الاعتراف بين آن وآخر. وكان رجال ديوان التفتيش يصدرون حكم الموت الفظيع على الرجل استناداً على أقوال تتفوه بها السنة أعز الناس اليه وأبرهم به وكان يكتفى الديوان باقل الشبهات لينشب مخالبه بتوحش فى الناس وعلى الرغم من كل هذه التدابير الوافية ازدادت الهطرقة انتشارا عند ماثبت لهم سخف التعاليم التى كانت تبرهن على صحتها الكنيسة بالات العذاب والموت وليس هذا فقط بل ان الدنايا التى كان يقترفها الاكليروس قد عملت فى نشر الالحاد . كيف لا وكان الغفران يباع جهارا وكان القسس يطوفون باشياء يسمونها مقدسة فى الطرقات والويل لمن لايتبرك بها بعد أن يدفع الضريبة المفروضة فى مثل هذه الظروف

وقام فيمن قام محتجاً على هذا الاذلال مارتن لوثر فحرمه البابا ولكن لم يجده الجرمان فتيلا فقام زوينجلى وقام كالفن وغيرهما محتجين على هذه الفظائع وكأن اتصالهم بالدين لم يفسح للتسامح مكانا فى قلوبهم فاخذوا بدورهم يضطهدون مخالفيهم فأحرق كلفن سرفيتوس بعد أن عذبه عذابا أليما. ولا يعود ضعف همة البروتستانت عن الكاثوليك فى الارهاق والاضطهاد عن تعفف أو عن انسانية بل عن قلة عددهم وحاجتهم إلى السطوة

وضربت الكنيسة الضربة القاضية يوم اخترع فن الطباعة وعبثا حاول القساوسة منع الناس عن ورود العرفان والتفكير لانفسهم ويصح أن يعد عهد اختراع الطباعة مبدأ تفكك أوصال الكنيسة وابتداء قيام فكرة الوطنية فى أوروبا وهكذا قرأ الناس غاليليو وقرأوا نيوتن «فسرقت من الآلهة أجمل صفاتها لتخلع على الطبيعة»

وأخذ العلم يهزأ بالطوفان وقصة آدم وحواء فتقهقرت الكنيسة وحاولت أن توفق بين العلم والدين حتى لقد ترك رجال الكهنوت أنفسهم فريسة للشك وتفتحت أعينهم وشحذت قرائحهم ففهموا أنه لا يمكن لموسى أن يكتب بيده كيفية موته ودفنه وما فعله بنو اسرائيل من بعده فقالوا إن التوراة قد خطها قلم عزرا ولكن بوحى من عند الله وقد كتب صورة طبق الاصل للاصل الذى حرق وقت الفتح البابلى وقضى أربعين يوما يقيد ما أملى عليه ولكن فاتهم أنه يستنتجوا من قراءة التوراة انها كتبت فى غير مصر لان البحر المتوسط لا يقع غربى صحراء التيه بل فى شماليها فاذا قيل بأن البحر كان غربا وجب أن يكون مكان الكتابة فى الجهة الشرقية من البحر

ويعتقد المؤلف أن قصص الخليقة والطوفان وسفين نوح ليست إلا أساطير تناقلها أفراد إحدى القبائل خلفاً عن سلف ثم كتبها عزرا ليحفظ لقبيلته السامية ذكرى بين آلاف من مثيلاتها من القبائل

ويدخل المؤلف فى بحث القانون الآلهى والقانون الوضعى فيقول إن رجال الدين من القائلين بوجوب الخضوع للرأى الاول وهم فى ذلك ناقلون عن الرومان الذين كانوا يستخيرون الآلهة فى أى القوانين يجب تطبيقها وكان القسس فى صدر المسيحية يعتقدون أن فى امكانهم جلب الخير ومنع الشر

وكان قدماء المسيحيين ينظرون فى الحوادث الطبيعية كمفاجآت تدعو إلى اندهاش الناس ولكنهم الفوها وأصبحوا يتوقعون حدوثها وهكذا نشأت فكرة القانون الطبيعى وعلى أثر ذلك استكشف Kepler قانون دوران السيارات وبينما كان البابا يحاول وأد رأيه قام دا فنشى da Vinci ونشر آراءه فى الميكانيكيات وغاليليو آراءه فى الديناميكا ونيوتن فكرة أن العالم الفلكى خاضع لاسس رياضية. فعجزت البابوية من المقاومة حتى أن بعض الكنائس سلمت بان النشوء وليس الخلق هو أصل الوجود ويعزو المؤلف اضطهاد الكاثوليك للبروتستانت إلى أن الاخيرين سلموا بالخضوع للقانون الوضعى واستخفوا بالمعجزات

ثم ينتقل الاستاذ ويقول إن تقدم أوروبا منذ بداءة القرن الرابع الى القرن السادس عشر للمسيح يعود إلى المسيحية وفى هذه المدة لم تتقدم الاخلاق وحل الخراب فى العاصمة الزاهرة — روما — ولكن والحق يقال لم يحتكر البابوات لانفسهم

عماية التخريب بل ساعدت عليه العصابات التى أغارت على روما خلال مائة واربعين سنة فهدمت المعابد لتبنى بانقاضها الكنائس ولقد اسلمت روما البابوية لروما الادبية فبذلت الجهد لمحوها ومن دواعى عدم الاستقرار وعدم استتاب الأمن انتخاب البابا من المسنين فبمجرد انتخابه كان يشعر بسطوة النشيطين من حاشيته فيندفع إلى ملاذه ويندفعون إلى توطيد نفوذهم بتوطيد نفوذه لان معنى سقوط البابا لم يكن أقل من ذهاب نفوذ المتسلطين عليه ليحل محله نفوذ متسلطين جدد وكان النضال مستمرا بين هؤلاء وهؤلاء وكلهم يتخذ الدين وسيلة لارهاق الناس وفقط عندما احتاجت البابوية إلى ماتلهى الناس به عن ورود العلم أخذت فى تشجيع الفن ولكن الفن لا يقوى على بث الحياة فى الامم. وهكذا كانت روما ومن تظله روما ضعيفة متأخرة وزاد الطين بلة بان قل النسل فى منطقة النفوذ البابوى حين كان فى ازدياد مستمر فى حمى النظام الاقطاعى وتعود قلة النسل فى روما الى تفشى الرهبنة بدرجة كبيرة فازداد الفسق ازدياداً اضطرت معه انجلترا أن تمنع تشييد الاديرة عندما اتضح لها أن الرهبان قد ضحوا بشرف مايقرب من مائة ألف عذراء على مذبح شهواتهم وأخفوا ثمار الجريمة تحت الثرى. وكذلك عدم استقرار الامن زهد الناس فى تحمل المسئولية اذ كانوا يشكون فى إمكان إقامة نظام عائلى ولما ذهب الناس الى الحروب الصليبية قضوا سنين عديدة وهم غير متزوجين أو فى حكم غير متزوجين

وأثر انتشار الاديرة مع الحملات الصليبية فى حرمان البلاد من الانتفاع بقوة الشبان الذين كانوا يلتجئون للرهبنة حيث يجدون مجالا للنهب والسلب فكان من أثر ذلك تتابع المجاعات وما ينتج عنها وكان المستوى الحيوى منحطاً جدا حتى ان الدود كان يسير على جسد رئيس أساقفة كنتربرى وعلى جسد آبا كيت الشهير. وفى عام ١٠٣٠ كان لحم الناس يطهى ويباع علناً فى أسواق انجلترا وكان السعيد هو من يحصل على أكلة واحدة منه فى الاسبوع

ولأن الأديرة كانت منتشرة كانت الغابات والاحراش من اللازوميات فلم تعبد الطرق بل بالعكس أتوا على ما تركه الرومان تخريبا ودثروا معالم القناطر العجيبة واكتفوا بالانتقال على عربات تجرها الثيران

ونتج عن منع الناس عن ارتشاف العلم انتشار الخرافات والاعتقاد بالمعجزات

فكانت الصلوات الحارة دواء الأمراض وكان الابتهال يقوم مقام البلديات فى تنظيف الطرق من الاوساخ المسببة للأمراض المعدية

وأخطأ مذنب هالى عام ١٤٥٦ فأطل بوجهه على الارض فحرمه البابا ولعنه وحكم عليه بالطرد من السماء ورغماً عن عناد المذنب بضعة أيام أثرت فيه اللعنة وولى ملبياً أمر البابا وهكذا اعتقد الناس أن البابا قد فعل شيئاً

عاد رفاق كولومبس ومعهم مرض الزهرى من جزائر الهند لأول مرة إلى أوروبا فتنازل البابا وقبله هدية لجسده المقدس. وهكذا فعل رجال الدين رغبة منهم فى إخفاء جرمهم فادعوا أنه يلتقط من الهواء وطلبوا من الناس الصلاة ليزول

ومن الخرافات التى انتشرت وقتذاك تلك الزجاجات التى أتى بها فرسان الصليبيين من الارض المقدسة وادعوا أنهم حلبوا ما تحويه بأيديهم من ثدى العذراء وفعلا باعوها بأثمان عالية وقد حصل أحد الأديرة على أصبع من أصابع الروح القدس فجمع من مشاهديه مالا كثيرا

وكانت كل كنيسة مستقلة داخلياً فى إدارتها وفى اعتقاداتها التى لا تتخالف مع إرادات البابا وكان كل خلاف يحل فى روما ولكن ظهرت نشأة فى بلاد الغال سنة ٨٤٥ مائة إرادة بابوية نشأت عنها شوشرة اضطرت البابا الى الاشراف الفعلى على جميع الكنائس وأعطى لرجال الكهنوت بعدها حق الحرمان (حتى حرمان الملوك أنفسهم) وجعل الامراء والملوك أتباعاً للبابا الذى عدت إرادته فى مقام الكتب المنزلة

ونتج عن شفاء الامبراطور قسطنطين بفعل تضرعات البابا أن أقطعه أرضاً واسعة فى ايطاليا ومشى فى ركابه مسافة طويلة تيمناً وشكرا فكانت هذه سابقة أثبتت سيادة البابا على الملوك

وازدادت فظائع الكنيسة الى حد لا يحتمل بفضل الاكليروس الايطالى الذى أمعن فى الناس سلباً وعذاباً وتحكما حتى لقد أجبرهم فى منتصف القرن الثانى عشر على القول بمساواة البابا لابن الله وابن الأب الاقدس فوق القانون فهو مالك الارض ومن عليها وبعد ما كان البابوات يدعون خلافتهم لبطرس قالوا أنهم خلفاء المسيح وكان نصيب المانيا من هذه الكوارث كبيرا أولا لقربها من روما وثانياً لغناء أرضها .

وكثرت الوظائف الدينية الغالية كثرة جلبت للبابا أموالا كثيرة حتى أن

ليو العاشر أنشأ ٢١٥٠ وظيفة باعها بأثمان عاليـة من جراء تهافت الناس عليها طمعاً فى الربح ولـكن مركز المطارنة أخذ فى الانحطـاط فاصبحوا موظفين لدى البابا يقسمون بطباعته السياسة كما يقسمون بطاعته الدينية

واشتغل الفاتيكان بالربا لدرجة أصبح معها البطاركة والامراء تحت رحمته وكان جزاء المماطل فى دفع الربا والمستحق الحرمان حتى أنه ليقال إن نصف العالم المسيحى كان محروما سنة ١٣٢٧

وكان يتم تعيين البابا باتفاق رجال الدين ولـكن اقتصر الانتخاب على الكرادلة وحدهم ابتداء من سنة ١٥٠٩ ونتجت عن هذا مشادة استمرت قرنين بين الكرادلة والبابوات لان الاولين كانوا يأخذون العهود على الآخرين قبل تعيينهم. ولـكن قلما اهتم الاخيرون بتنفيذ تعهداتهم ولم يتفق الكرادلة على شخص للبابوية. فظل الكرسى خالياً بضع سنين

وحتى عندما انتقلت البابوية الى فرنسا لم يتغير غير جنسية الاشخاص فاصبحوا فرنسيون بدلا من ايطاليين وفى ذاك الوقت اكتشف منجم « المطهر » Purgatory وهكذا وردت للسوق بضاعة جديدة تربح الاكليروس أموالا

وكانت البابوية تقتسم أملاك الهراطقة التى تصادرها رجال التفتيش بعد حرمان الورثة منها مناصفة ولـكن حدث أن وجد فى عالم الكثلكة بابا وان أحدهما فرنسوى والآخر ايطالى فهبط سعر الغفران والحرمان لما داخل الناس من الشك فى أيهما الحقيقى فقل دخل رجال الدين وارتأوا العمل لتوحيد الصفوف فجمعوا مجلساً عاما منعوا دخوله على الالمان وقرروا فيه أن البابا صاحب السلطة التنفيذية وادعوا أن اللاتينية لغة مقدسة وأوجبوا استعمالها دون غيرها من اللغات الموضعية وهكذا تم الانتصار لايطاليا على فرنسا.

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى أمريكا فيقول أن نزوح الاوروبيين اليها كان اما لصيد الحيتان أو هروبا من الاضطهادات أو بحثا على النهير الذى يديم الشباب وقد استنتجوا من مشاهدة الهنود وجود أراض صالحة للاستعمار فدفعهم ذلك الى التوغل فى المجاهل وتوافد المهاجرون فازدادت التجارة والزراعة وانتشرت المدارس وأصبح فى الولايات المتحدة خطوط حديدية تزيد فى طولها عن مجموع الخطوط الاوروبية. اذن فنهضة المدنية الحالية بدأت تزدهر فى امريكا قبل أوروبا

وكان المال يتسرب إلى روما من أنحاء أوروبا فمنع فيليب ملك فرنسا تصدير الذهب والفضة من بلاده إلا بأمر منه وضرب الضرائب على أملاك الرهبان فحرمه البابا فما كان من الملك إلا أن اتهم البابا علناً بالهرطقة وطلب محاكمته ولم ينتظر بل اختطفه وعامله معاملة قاسية فمات وخلفه آخر لم يلبث ان مات مسموما . فلم يجد الكرادلة بداً من الاتفاق مع الملك وهكذا انتخب كلمنت الخامس الافرنسى ليكون بابا ونزح بكرسيه إلى فرنسا حيث أقامت البابوية سبعين سنة تنفست خلالها ايطاليا الصعداء وتمكنت المراكز التجارية الشمالية فيها من الاتصال بالعلم

ومما أسقط من هيبة البابوية وقوع الحرب الصليبية إذ وقف المحاربون على أن أعداءهم ليسوا كما صورتهم الكنيسة همجاً جهالا بل بالعكس اقتبسوا منهم معنى العدل والشمم

وانتقلت فكرة الفروسية عن العرب الى جنوب فرنسا ودخلت معها كلمة الشرف واقتبس الفرنسيون عن العرب أيضاً « الحداء » الذى لم يلبث حتى انتقل من النسيب والغزل الى الشكوى والتذمر من الحكم البابوى

وعبثا حاول البابا عندما رجع الى روما ان يقف تيار التقدم وأصبحت اوروبا كلها تستنكف فكرة ترك جماعة من الاشرار يعيثون فيها فساداً باسم الله. وجمع رجال الدين مجمعان فى كنستانس وفى باسل لرتق الفتق ولكنهما انفضا دون أن يفعلا شيئا وظل النفوذ الايطالى على ما كان عليه

وضربت الطباعة الكنيسة ضربة قاضية لم تنفع معها وسائل الوقاية من مراقبة وحرمان

وعرف المحاربون الصليبيون أنهم لم يحاربوا لله بل لأسيادهم من الامراء والكرادلة فلما اكتشفت أميركا نزح الناس اليها وكلهم معول على أن يعمل لحسابه الخاص وكلهم كاره لنظام الحكومة البابويه وهكذا بدأت اوروبا تفهم أن الانسان سيد نفسه وانه يجب أن يعمل لذاته وفى وسط هذا الانتقال قام لوثر قومته فهزأت به الكنيسة أولا ولكنها لم تلبث ان رأت حوله من يلبون دعوته وسيوفهم مشرعة بايديهم فرمته الكنيسة بالفاظ غاية فى البذاءة مثل ادعائها أنه ابن زنا وأنه عربيد

وحين أحس البروتستانت أن يد روما أقصر من أن تنالهم امعنوا فى الاختلاف

واقتراف الفظائع. وكان هذا نتيجة لازمة للانتقال ولكن همهم كان متجهاً نحو تنقية المسيحية من التعاليم الوثنية التى زجها قسطنطين ومن خلفه فيها ودعوا الى الرجوع بالمسيحية الى عهدها الفطرى فمنعوا عبادة العذراء والتمسح بالقديسين وقد بلغ بهم الحال أن طائفة منهم قالت إن أم مريم تزوجت وولدت عدة أطفال كان أحدهم المسيح

وفى هذا الوقت كان ضغط العرب شديداً فنفذت الى اوروبا تعاليم ارسطو مهذبة بفلسفة ابن رشد فانشئت أول اكاديمية عام ١٣٤٥ فى طولوز وكانت تهتم بالآداب وأنشئت واحدة أخرى فى نابولى كانت تبحث فى العلوم وهذه أغلقت قسراً ومن الغريب أنه كان يحتم على المضو أن يعترف بانه ملحد قبل قبوله فيها حتى يتيسر له البحث دون تحيز

وتسبب عن انتشار العلم طرح المعتقدات جانبا إذا لم تقبل عقلياً والعمل لتفهم الاشياء فتوصلوا الى الاختراعات والاكتشافات التى أخذت تتكاثر مع الزمن وتنتج عنها ثورة اجتماعية . ولقد قضت هذه الثورة على نظام الاستعباد فقام الشمال يحارب الجنوب فى أمريكا لمنع الرق اذ أن تلك البلاد مع روسيا كانتا مزرعتين يربى فيهما الارقاء فامتناع الرق يعود الى المخترعات والمكتشفات وليس الى عاطفة نبيلة

ولم تقم للكنيسة بعد ذلك قائمة جدية إلا انها شرعت دفعتين تعمل لكثلكة المانيا وذلك فى حربى بروسيا — النمسا وبروسيا — فرنسا، ولكنها اخفقت

وحرم البابا بعد ذلك أحد المدرسين الالمان فتساءل الناس عمن يسود الامم أحكومتها أم الكنيسة وخفقت هذه الحادثة من غلواء الكهنوت ولكن ليس معنى هذا أن اوروبا كانت قد تحررت من الكنيسة فهى لاتزال خاضعة لسلطتين سلطة الدين وسلطة الدنيا

عمر عنايت